أسماء الغول*

غزة: حالة نضالية جديدة

مسيرات شعبية حاشدة على الحدود مع قطاع غزة، اختير لها اسم "مسيرات العودة" ويشارك بها الآلاف؛ الشعب يقول كلمته لأول مرة منذ ١٢ عاماً حين فرضت أميركا وإسرائيل الحصار على القطاع في سنة ٢٠٠٧.. كأنه ربيع عربي جديد تطلقه غزة وحدها هذه المرة.

لكن هذه ليست المرة الأولى التي تشهد فيها حدود الأراضي الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل مثل هذه المسيرات، فقد سبق أن شهدت الحدود في لبنان والجولان في سنة ٢٠١١ مسيرات مشابهة. أمّا في قطاع غزة، وربما استفادة ممّا جرى في لبنان والجولان، فإن المسيرات كانت أكثر زخماً كل يوم جمعة، اعتباراً من ٣٠ آذار/مارس ٢٠١٨، وقد نُصبت الخيم قبالة الشريط الحدودي لاستقبال المشاركين، وبهدف تأمين المستلزمات اللوجستية.

العلم الفلسطيني وحده في المسيرات

* صحافية فلسطينية من قطاع غزة.

فاجأت تلك المسيرات الجميع، بمَن فيهم الصحافيون والمحللون السياسيون، فالدعوات إلى مسيرات العودة بدت ضعيفة على وسائل التواصل الاجتماعي، لكن المفاجأة كانت باستجابة عشرات الآلاف من الرجال والنساء والشبان والشابات والفتية والفتيان، وذلك كل يوم جمعة، وبأعداد أقل في بقية أيام الأسبوع، حتى وصلت المشاركة إلى ذروتها في ذكرى النكبة، يوم الاثنين الموافق فيه ١٤ أيار/مايو، وهو اليوم الذي اختاره الرئيس الأميركي دونالد ترامب لنقل سفارة بلده إلى القدس المحتلة.

قضية اللاجئين أهم الدوافع

المفاجأة كانت في أن يطلق قطاع غزة انتفاضته هذه إعلاء لقضية اللاجئين التي يبدو أن العالم وضعها خلفه، ورداً على نقل إدارة ترامب السفارة إلى القدس المحتلة. فالقطاع، وعلى الرغم من أن سكانه، في معظمهم، هم لاجئون ممّن طُردوا من أراضيهم في سنة ١٩٤٨، فإن مشكلاته لا تكاد تُحصى، أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية، وهي تتراكم وتزداد سوءاً، علاوة على الانقسام بين "فتح" و"حماس" الذي فصل عملياً القطاع عن الضفة الغربية، وعلى فشل مشاريع إعادة إعمار ما دمرته ثلاثة حروب، وليس انتهاء بسياسات "حماس" الداخلية القمعية، وسياسة العقاب التي قررها الرئيس الفلسطيني محمود عباس بحقّ غزة عبر خفض نسبة مساهمة السلطة في تكلفة تزويد غزة بالكهرباء.

يقول أحد الداعين الأوائل إلى مسيرات العودة أحمد أبو رتيمة لـ "مجلة الدراسات الفلسطينية": "أعتقد أن السبب الرئيسي لمشاركة الناس الكثيفة في المسيرات هو الشعور العام بوجود مخاطر تحيط بالقضية الفلسطينية مع إعلان أميركا نقل سفارتها، واعتبار القدس عاصمة لإسرائيل، وذلك بموازاة تسريب أخبار عن تصفية قضية اللاجئين عبر ما يُعرف بصفقة القرن."

ويتابع أبو رتيمة الذي لم يلتفت كثيرون في البداية إلى دعواته إلى المقاومة السلمية، والذي أصبح الآن من أهم الناشطين على وسائل التواصل الاجتماعي: "ومن أسباب المسيرات الأوضاع الإنسانية القاسية في قطاع غزة وسط معابر مغلقة، وانهيار قطاعَي الاقتصاد والصحة، وبطالة عشرات الآلاف من الطلبة."

وفي سياق متصل يقول الكاتب السياسي إبراهيم أبراش: "تزامنت المسيرات في القطاع مع تداخل ملفات متعددة: ملف العودة والاحتجاج على قرار ترامب بنقل السفارة، وملف الحصار على غزة وقضايا أُخرى ظهرت جرّاء الانقسام، ومن دون وجود استراتيجيا أو رؤية وطنية مشتركة للمسيرة من حيث تنظيمها واستمراريتها وأهدافها النهائية، الأمر الذي يثير القلق إزاء ما ستؤول إليه هذه الفكرة العظيمة."

ويضيف أنه يرى من الأسباب الرئيسية للمسيرات: "فشل المعالجات المجتزأة للقضية الفلسطينية، وخصوصاً بعد انكشاف حقيقة المواقف الدولية ومحدوديتها، وكذلك فشل مشاريع التسوية كلها وما ارتبط بها من مبادرات وتنازلات فيما يتعلق بقضية اللاجئين، وفشل أو عجز الطبقة السياسية الفلسطينية عن تحقيق الأهداف الوطنية، علاوة على ما يتعرض له اللاجئون في سورية ولبنان من خطر الإبادة والتهجير الجماعي، وفي الدول الأُخرى من إذلال وإهانات ليسا منقطعَي الصلة بالمؤامرة على حق العودة وتصفية قضية اللاجئين."

وتابع أبراش: "هناك جيل جديد لم يعاصر النكبة وليس لديه ذكريات وطن وأرض وحياة كان يعيشها حراً وسيداً؛ هذا الجيل يتم سحقه في هموم الحياة اليومية وفي الصراعات السياسية بحيث بات همّه تأمين حياة كريمة حيث يعيش."

ولا يمكن إنكار أن هذه المسيرات استطاعت خلال فترة وجيزة أن تعيد قضية اللاجئين إلى واقع الحياة السياسية للناس والقيادات على حد سواء، كما أن غزة عادت إلى شاشات الإعلام الأجنبي بصورة مغايرة عن النموذج النمطي المعتاد لكونها ضحية أو معتدية، ورجعت بذاكرة العالم إلى النضال السلمي والشعبي في بداياته، وإلى ذاكرة أطفال الحجارة، بدلاً من ذاكرة ثلاثة حروب وآلة إعلامية إسرائيلية حولت غزة إلى معقل "إرهاب"، وجمعت بين "داعش" والمقاومة.

وعي أهمية المقاومة السلمية

من الإنجازات التي يمكن أن تضاف إلى نتائج مسيرات العودة، الوعي المتصاعد لدى مَن شاركوا في المسيرات، بأهمية النضال السلمي لتحقيق مكاسب، وهي مسيرات لا يستطيع الاحتلال الإسرائيلي منعها، ويقف بالتالي حائراً أمام كيفية مواجهتها.

يقول ماجد مناصرة (٥٠ عاماً) الذي شارك في مسيرة يوم الجمعة ٤ أيار/مايو ٢٠١٨: "الناس لا بد من أن يجربوا المسيرات السلمية حتى من دون رمي الحجارة، كي نعود إلى فلسطين، لذلك أشارك اليوم مع الشباب."

أمّا عطاف وادي (٥٧ عاماً) التي تقف قرب مناصرة في منطقة ملكة على تخوم شرقي مدينة غزة، فتقول: "أشارك في المسيرات منذ أن بدأت في ٣٠ آذار/مارس وبشكل يومي، 'لأنو بدنا نعود وبدنا نفتح الحدود' كشعب أعزل، لكن إسرائيل تقابل ذلك بأسلحة محرمة دولياً."

الشهيد فادي أبو صلاح الذي استشهد خلال مسيرات العودة، وكان قد فقد ساقَيه في أثناء الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة ٢٠٠٨/٢٠٠٩.

ومن الممكن ملاحظة وعي مغاير لدى الناس بعيداً عن استخدام السلاح وإطلاق الصواريخ، وهو وعي فرضته الحالة الشعبية لسلمية مسيرات العودة التي هي حالة نضالية غير مسبوقة حتى في الانتفاضة الأولى؛ فالعائلات تخرج إلى الحدود حاملة معها طعامها وشرابها كأنها في رحلة عائلية أو كرنفال يحتفي الجميع فيه بالمقاومة بطريقته؛ فهناك مَن يرسم ويغني أو يصور الفيديوهات الكوميدية أو يقابل معارفه، وهناك مَن يرمي الحجارة أو يشعل إطارات "الكاوتشوك".

إنهم يقاومون بإرادتهم، متجاوزين الحصار الذي دخلت مفاعيله إلى كل منزل في قطاع غزة، وخصوصاً بعد الإجراءات العقابية كقطع رواتب موظفي السلطة الوطنية الفلسطينية، الأمر الذي حوّلهم جميعاً إلى صوت واحد في مسيرات العودة.

عفوية الناس وأخطاء القيادات

لقد جعلت هذه المسيرات كثيراً من الصحف والشخصيات السياسية في الغرب يتجرؤون على الجهر بمناصرتهم قطاع غزة، وعلى نشر فيديوهات لجنود إسرائيليين يبدون سعداء باصطياد الفلسطينيين العزّل بواسطة بنادق قناصة.

إنها المرة الأولى التي تقرر فيها غزة أن تتعامل مع الاحتلال الإسرائيلي على أنه نظام ظالم وفاسد أيضاً، وليس فقط عدواً أيديولوجيا تحاربه بالنار، الأمر الذي يجعل خط الحدود بمثابة معركة سلمية طويلة الأمد ومستمرة؛ إنه ميدان تحرير عنوانه هذه المرة غزة، وهو مفتوح حتى سقوط نظام الاحتلال الإسرائيلي.

هذا التصاعد الديناميكي كله في مسيرات العودة، والتحديات المحيطة بها، وتداخل الحقوق المطلبية لأهالي القطاع، وتسابق الفصائل الفلسطينية وقياداتها على المشاركة، لا يعني أن هذه المسيرات تخلت عن هدفها الأساسي، وهو العودة إلى الأراضي التي احتلتها إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨، بل من أجل هذا خرج الناس وهم يعون ذلك جيداً، حتى لو بدا الأمر حلماً بالنسبة إليهم يلمحون من خلاله البلد من وراء السياج الحدودي، ويشمّون رائحة الأرض، فهذا الحلم يبقى المحرك لكل ما يحدث، وبسببه ولأجله سقط حتى الآن ١١٢ شهيداً، وآلاف الجرحى.

في يوم الجمعة الموافق فيه ١١ أيار/مايو، عند حدود شرقي غزة، التقت "مجلة الدراسات الفلسطينية" متظاهرين شباناً جدداً أكدوا تمسكهم بحق العودة، وتحدثوا عن إبداعاتهم خلال المسيرات.

يقول عبد الله البايض (٢٨ عاماً) أنه جاء كي يشارك الشباب من جيله في المطالبة بحق العودة، مضيفاً: "أنا لا أزال شاباً، ومن حقي أن أعود لأعيش في أرضي الأصلية، وعلى الجميع أن يشارك من دون خوف على عائلة أو أبناء، فنحن نفعل هذا من أجل مستقبلهم."

أمّا الشاب أحمد البحيري (١٩ عاماً) وكان يمسك خيط طائرة ورقية بيده، فيقول: "أضفت شبكة إلى جسم الطائرة الورقية كي أُسقط طائرات الاحتلال الصغيرة، وقبل نحو ساعة وقعت طائرة لكن داخل الحدود." وفعلاً نجح المتظاهرون في إسقاط عدد من طائرات التصوير الإسرائيلية على مدى أسابيع المسيرات بواسطة الطائرات الورقية.

الفتى علاء السرسك (١٧ عاماً) يوضح أنه جاء ليشارك في المسيرات من أجل حق العودة، متابعاً: "قالوا عن اللاجئين الفلسطينيين: الكبار سيموتون والصغار سينسون، وها نحن هنا نجد الكبار والصغار."

ربما كان المشروع الوطني الفلسطيني في أزمة، لكن مثل هؤلاء الشباب الذي يعون حقوقهم، باتوا يمثلون محركاً جديداً للمشروع الوطني، فقد أعادوا القضية الفلسطينية إلى صدارة العالم، واسترجعوا التضامن معها بعدما كان قد ضمر، بحيث أصبحنا نشاهد ونستمع إلى الإدانات الكثيرة والمتصاعدة لعدوانية الاحتلال بعد أعوام من الصمت إزاء سلوك إسرائيل.

لكن في مقابل النجاحات التي حققتها المسيرات العفوية، يمكن القول إن احتضان القضية الفلسطينية، الذي حدث بشكل كبير في الأسابيع الأولى، سرعان ما تراجع بسبب تصريحات القيادات الفلسطينية المتحزبة، وكذلك ضعف أداء وسائل الإعلام الفلسطيني المحلي التي لم تستطع تغيير نغمة الخطاب التحريضي الكلاسيكي كأن الحرب عادت، بدلاً من فهم الروح الشعبية السلمية لما يحدث في ربيع غزة، وأن مواجهة الاحتلال الإسرائيلي تأخذ اليوم مدى استراتيجياً طويلاً.

يقول أبو رتيمة: "إن أي صمت كان سيقابله مزيد من الإيغال في الحصار، وأي حرب جديدة ستكون تكلفتها باهظة، والجميع يدرك ذلك، وخصوصاً الفصائل الفلسطينية، ومن هنا جاءت مسيرات العودة كحلّ وسط بين رفض الصمت ورفض الحرب عبر إحداث حالة نضال سلمي شعبي تزعج الاحتلال وترفع صوت غزة وبأقل الخسائر."

"حماس" في مسيرات العودة

يبدو أن حركة "حماس" التي تحكم قطاع غزة بعد فشل جميع محاولات المصالحة مع حركة "فتح"، أدركت ولو متأخرة أهمية هذه المسيرات وبدأت تتبنّاها، بل غيرت اسم هذه المسيرات إلى "مسيرات العودة وكسر الحصار"، وأصبحت حريصة على نجاح سلميتها.

وكان رئيس المكتب السياسي إسماعيل هنية تحدث من منصّة تحمل شعار مسيرات العودة في التاسع من نيسان/أبريل الماضي، وخلفه صور لرموز من النضال العالمي: المهاتما غاندي ونيلسون مانديلا ومارتن لوثر كنج، كما أن مسؤول "حماس" في غزة يحيى السنوار تحدث عن أهمية المقاومة السلمية خلال اجتماعه بصحافيين أجانب في العاشر من أيار/مايو، ثم في مقابلات لاحقة مع قناة "الجزيرة".

ومع هذه المحاولات كلها من طرف "حماس" لتبنّي مسيرات العودة علناً، إلاّ إنها لا تزال غير قادرة على عدم التذكير بالمقاومة المسلحة، فالسنوار مثلاً يقول خلال اجتماعه ببعض الصحافيين: "نرغب في حل مشكلات غزة والفلسطينيين بالطرق السلمية.. وإن اضطرنا الأمر، فإننا سنذهب إلى المقاومة المسلحة التي يضمنها القانون الدولي لنا."

وفي السياق نفسه، صرّح القيادي في "حماس" صلاح البردويل، عقب مجزرة يوم الاثنين الموافق فيه ١٤ أيار/مايو، لوسيلة إعلام محلية: "استشهد في هذه التظاهرات نحو ٦٢ شخصاً، ٥٠ منهم ينتمون إلى 'حماس'."

وقد استغلت وسائل الإعلام العالمية التي كانت تدافع عن غزة منذ أيام قليلة تصريحه للانقلاب على المسيرات، إذ إن هذا النوع من الخطاب الفصائلي المتحزب والضيق والقاصر عن استيعاب تضحيات الشعب، يؤثر كثيراً بشكل سلبي في صدقية وفاعلية هذه المسيرات، وفي مدى ما تتركه من أثر في العالم والعدو المحتل.

ولهذا، يتعين على "حماس" إذا ما تبنّت المقاومة السلمية خلال هذه المرحلة الحساسة والانتقالية في حياة النضال الفلسطيني وتاريخ غزة المؤلم، أن تأخذها على محمل الجد، وأن تضعها ضمن آليات خطاب وطني فلسطيني شامل، وتتوقف عن التعامل مع نفسها كمعارضة وهي الحاكمة لغزة، وألاّ تخشى من نقد مؤيديها لهذا النهج السلمي، إذ لا يمكن أن يبقى أسلوبها هجيناً في ظل خروج الجماهير الحاشدة على الحدود.

هذا الوعي الجزئي داخل "حماس" بأهمية المقاومة السلمية يحتاج إلى صيانة وتقوية وتجذير، من دون الخوف من أن يتم وصف مَن يتبّنون هذا الخيار بالمستسلمين أو المنهزمين، أو بأنهم يشبهون حركة "فتح".

ويرى الكاتب إبراهيم أبراش أن مسيرات العودة كان من الممكن أن تكون بمثابة منعطف وطني في تاريخ النضال الفلسطيني لو أنها أتت ضمن استراتيجيا وحدة وطنية، لكننا نخشى في الوضع الراهن من أن تتم مقايضتها مع مرور الوقت في مقابل تخفيف الحصار.

ويضيف: "بغضّ النظر عمّا ستؤول إليه مسيرة العودة، وخصوصاً مع المساومات والضغوط التي تمارَس على حركة 'حماس' والقيادة الفلسطينية للحدّ منها، فإن هذه المسيرات يجب أن تستمر، وأن يُعمل على تطويرها وإبداع طرق جديدة لإحياء النكبة وللصدام مع الاحتلال."

يوم المواجهة

لقد مضى الشعب في ذكرى النكبة نحو الأراضي المحتلة بعزم، وأزال جزءاً كبيراً من الشريط الشائك عند حدود قطاع غزة الشمالية والشرقية والجنوبية، وقدّر بعض وسائل الإعلام عدد المشاركين بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ متظاهرة ومتظاهر، كما غطى المسيرات أكثر من ٦٠٠ صحافي من جميع أنحاء العالم، وسط أيقونات نضالية عززتها الصورة التي تخرج من غزة كحرق "الكاوتشوك"، وإطلاق الطائرات الورقية، وارتداء الأزياء التنكرية.

سقط يومها ٦٢ شهيداً آخرهم الطفلة الرضيعة ليلى الغندور البالغة من العمر ثمانية أشهر، جرّاء استنشاقها للغاز، وتبعها ثلاثة شهداء خلال الأيام اللاحقة متأثرين بجروحهم ليصبح العدد ٦٥ شهيداً.

وفي ١٤ أيار/مايو ٢٠١٨، أجرت "مجلة الدراسات الفلسطينية" مزيداً من اللقاءات مع المتظاهرين في شرقي غزة، ومنهم الشاب عدنان الجايح (٢١عاماً) الذي قال بحماسة: "جئت من أجل العودة إلى أرضي، وسأرمي حجارة على الجنود، فهم يطلقون الرصاص بكل الأحوال، وأصيب شقيقي قبل يومين."

أمّا موسى عبيد (٧٦عاماً) فقال بصوت متعب: "جئت لانتفاضة القدس.. 'وبدنا نرجع إلى أرضنا غصب عن إسرائيل ورئيس أميركا'." وقطع حديثه إطلاق نار، فتابع: "بدأوا 'الطخ'، أنا ما بخاف غير من الله."

عايدة أبو قدوس (٥٣ سنة) التي ترتدي كمامة طبية خضراء علّها تحميها من الغاز المسيل للدموع تقول: "جايين نحرر أرضنا اليوم، وأرض أجدادي وكل الفلسطينيين، 'وبدي أدخل من الحدود، وإذا ما دخلنا اليوم بكرة بندخل'."

وللسيدة الغزّية حجرا!

... وطائرة ورقية مُحرِقة

حفظ السلمية حفاظاً على غزة

إذا لم تتراجع الجماهير عن مسيرات العودة، ولم تفقد حماستها، وبقي خطاب "حماس" ينادي ويؤكد النضال السلمي، فإنه يمكن أيضاً الرهان على هذه المسيرات لتكون بمثابة قبلة الحياة إلى القضية الفلسطينية. أمّا إذا أصبحت الثمنَ في صفقات جديدة لتزيد في الهوة بين "فتح" و"حماس"، وتفصل القطاع عن بقية فلسطين، فإن غزة لن تستطيع هذه المرة النجاة بنفسها أيضاً، وسيكون مصيرها الحصار والفقر لعشرة أعوام أُخرى، وستعود الحرب لتنفث لهاثها في الوجوه من جديد. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بلادنا فلسطين
(الجزء الأول)
جغرافية فلسطين وتاريخها:
نظرة عامة

مصطفى مراد الدباغ

تقديم: وليد الخالدي

٧٨١ صفحة ٢٥ دولاراً (تجليداً فنياً)

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مراجعة للسياسات الإسرائيلية
تجاه القضية الفلسطينية

مجموعة باحثين

تحرير: جميل هلال، ومنير فخر الدين، وخالد فراج

٣٨٨ صفحة ١٢ دولاراً